صلة اللهجات المعاصرة بالفصحى وأثرها فيها

مهين حاجی‌زاده*
فريدة شهرستانی**

تاريخ الوصول: ۱۳۹۰/۷/۲هـ ش
تاريخ القبول: ۱۳۹۰/۷/۲۸هـ ش

الملخص

المشـــكلة اللغوية فی عصرنا هی أنّ العربية الفصيحة المكتوبة هی غير العربية المســـتعملة فـــی التخاطب وغير اللهجات الدارجة التی لم ترق إلی لغـــة المثقفين، وهی فی مادتها نماذج متأخرة وليس قيام المشـــكلة علی هذا الوجه بمستحيل الحل. وشيوع الثقافة وتيسير المعرفة لأبناء العربية علی شـــكل عام كفيل برفع مســـتوی اللغة إلی الحد الذی كانت عليه العربية فی مختلف عصورها، فلم يســـلم عصر من عصور التاريخ اللغوی مـــن ازدواج فی اللغة. وربما كانت العامية الدارجة قريبة من الفصيحة لغة الكتابة ولكنها متحللة من ضوابط الإعراب؛ فالمتكلمون بها يلتزمون الإسكان فی صورها وهذا ما نصبوا إليه فی تقريب العامية فی الفصيح. وهذا معناه أنّ اللهجات العامية تتعدّل وتتهذّب ويدلک الخشن فيها فيلين، ولكنها لا ولن تُغلب ويجب ألّا تُغلـــب لأنّها المصدر ما ندعوه فصيحاً مـــن الكلام. ومن جهة أخری، إنّ إبدال الفصحی بالعامية عمليـــة تهـــدف إلی تجزئة الأمة الواحدة إلـــی كيانات لغوية متباينة تعمـــل علی إعاقة تحقيق الوحدة العربية، وتقطيع الصلات والوشائح التی تكونت عبر الزمن بفضل اللغة الواحدة. إذن، لابدّ لنـــا أن نقبل علی إتجاه يدعو إلی نوع من الملاقاة والتوحيد بين الفصحی والعامية. وهذا هو ما نحاول إلقاء الضوء عليه فی هذا المقال.

الكلمات الدليلية: اللغة العربية، أبناء العرب، اللهجات العامية، اللغة الفصحی، التخاطب، الكتابة.

*. أستاذة مساعدة بجامعة آذربايجان لإعداد المعلمين، إيران. hajizadeh_tma@yahoo.com
**. خريجة جامعة آذربايجان لإعداد المعلمين، إيران.

المقدمة

إيماننـــا القوى بأنّ اللغة هى الباب الأول من كتاب المعرفة الإنســـانية، وأولى الدعائـــم التـــى يرتكز عليها تفهـــم الناس بعضهم عن بعـــض، وإنّ اللغة بعد ذلک كلّـــه صلة بين الشـــعوب الناطقة بها: تقوم فى التأليف بيـــن قلوبهم، وفى توحيد مزاجهم إلى حدّ ما مقام لمحة النســـب ووشائج القربى، وتسلک فى سبيل اتحاد رأيهـــم، وهواهم، وثقافتهم أقوم ما تســـلكه الروابط الطبيعية مـــن الطرق؛ واللغة نشـــاط أو ســـلوک اجتماعى تقوم به جماعة من الناس بهدف الاتصال والتعاون، وهى بهذا المعنى تتدخل فى أشـــكال النشـــاط الاجتماعى السائدة فى المجتمع. «فاللغة نظام اجتماعى فكرى عرفى يشـــرح العلاقة الارتباطية بين الرمز والمعنى من حيـــث عرفيتها واطرادها، وهذه المنظمة العرفية ترمز إلى نشـــاط المجتمع، فوظيفتهـــا تحقيق الوجود الاجتماعى للفرد؛ فهـــى الإطار الاجتماعى لأداء الفرد، وتفهم بالتأمل فى الكلام الذى نقول بحســـبه ونكتب بحسبه، وتوصيف اللغة عادة فى كتب القواعد، المعجمات، علم البيان وفقه اللغة و....» (حسّان، ١٩٧٣م: ٣٢)

فاللغة بحق ســـرّ الله فى خلقه من بنى البشـــر (خرما، ١٩٧٨م: ٧٣) وهى من أعرق مظاهر الحضارة الإنســـانية، بل هى أصل الحضـــارة، وصانعة الرقى، والتقدم فهى التى تؤلف الحدّ الفاصل بين شعب وبين أمةٍ وأمةٍ، بل بين حضارةٍ وحضارةٍ، لأنّ الأفـــراد يتكلمون بلغة واحدة، لايتفاهمون بيســـر وســـهولة وإنّما هم قادرون على أن يؤلفوا مجتمعاً إنسانياً موحداً متجانساً، لأنّ اللغة هى قوام الحياة الروحية والفكرية والمادية، بها يعمق الإنســـان صلته وأصالته فى المجتمع الذى يولد فيه، حيـــث تخلق اللغـــة من أفراده أمة متماســـكة الأصول موحدة الفـــروع. قد حاول علماء اللغة وغيرهم من العلماء، والفلاسفة، والمفكرين على مرّ العصور أن يسبروا غور هذه الظاهرة الفريدة العريقة فى حياة البشـــر للكشـــف عن حقيقتها وكنهها. (السعران، ١٩٩٧م: ٥)

واللغة فى الأصل أصوات اســـتعملها الإنســـان فى عهد الفطـــرة ليعبر بها عن حاجاته، وإحساســـاته وهذه الحاجات والإحساسات تكاد تكون واحدة أو متشابهة عند الإنســـان البدائى فى كلّ مكان؛ فهو يبرد، ويجـــوع، ويفرح، ويغضب، ويتألم كغيـــره من بنى البشـــر، فكان يعرب عن هـــذه الحاجات والإحساســـات بأصواتٍ

بسيطة، وبساطتها جعلتها تكون متشابهة عند الجميع. (الكرمى، ۲۰۰۲م: ۲)

واللغة التى ســنتطرق إليها فى هذا المقال هــى اللغة العربية. كما نعرف «إنّ اللغة العربية هى لغة القرآن وشاء الله سبحانه أن تكون العربية لغة رسالته الخاتمة، فشرفت بالقرآن والسنة ثم خلّدت على مرّ القرون تستوعب كلّ جديد فى حقول المعرفــة وامتدت فى الأصقاع المعمورة مع اتســاع رقعة الإســلام.» (آذرشــب، ۱۳۸۳ش: ۹) وبعد مجىء الإســلام ودخول أقوام من العجم فى الإســلام ظهرت الحاجة لتعلم العربية، والمحافظة على ســلامة اللغة العربية من التحريف... ولكن مــع تقدم الأيام حلّت اللهجات العاميــة محل الفصحى، وأصبح لكل إقليم لهجته الخاصة به، وتطور الأمر إلى أن أصبح كل بلد له مصطلحاته التى تميزه عن غيره، وصار من الســهل تميز الشــخص من خلال كلامه من أى البلاد هو، وعلى تنوع لهجات العرب إلا أن العربية الفصحى تجمعهم على تفاوت بينهم فى القرب منها أو البعد عنها، فالكل يزعم أن لهجته هى الأفصح، وهى الأقرب للغة الفصحى....

وأما اللهجات العربية الحديثة فهى بعيدة كل البعد وبعضها لايســتمد ألفاظها من اللغة الأم العربية، بل من لغات أجنبية مثل الفرنسية، والإنكليزية، والإيطالية، والغريــب فى الأمر أن كل صاحــب لهجة يتزمت للهجته ولهجة بلاده وكأن الأمر أمر لهجة أو أخرى.

أما الحديث عن صلة اللهجات العامية أو لغة العامة بالفصحى ليس وليد العصر، بــل تطرّق له بعض من كتب فى التاريخ والأدب فى العصور الخالية، من أمثال ابن خلــدون (ت ۸۰۸ ق) الّذى سَــمَّى لُغَة عصره لغة الجيل، وقــارن بينها وبين اللُّغة المضريّة، وقد أفرد فى مقدّمته فصولا للبحث فى هذا الشأن، منها فصلٌ عنوانه "لغة العرب لهذا العهد لغةٌ مســتقلّةٌ مغايــرة للغة مضر وحمير" وآخر عنوانه "لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر" عالج فيها ابن خلدون مميزات لهجة عصره أو لغة جيله، كزوال الإعراب، ولزوم علامة الوقف فى أواخرالكلام.

وتتفــاوت العاميات فى قربها من الفصحى. صحيح أنّ العاميات بجملتها قريبة مــن الفصحى، لكنّ هذا غير مانع أن يوجد فــى العامية ما يعيق إتقان الفصحى، خاصّة ما يتلقّنه الإنســان فــى أيّامه الأولى من بعض الانحرافــات الصوتيّة، التى تجعل من العسير عليه أن يتقن أصوات الفصحى بمخارجها وصفاتها.

إنّنا لانستطيع أن نسمى ما يجرى بين الفصحى والعاميّات بأنّه صراعٌ، وإنّما هو شذوذٌ، وخروجٌ عن الأصل، لايصعب على الناظر معرفته، ولا مقاومته، ولا إصلاحه، ولا رَدُّه إلى وجه الصواب والجادّة؛ لأنَّ اللغة الموحدة ما زالتْ حَيَّةً في الحياة الثقافية، وفى الكتابة، وفى مظاهر الرقىّ والتقدُّم، وهى عنوان الثقافة والعلم، والحاجة إليها قائمة؛ لأنّها من أهمّ أسس تحقيق الهويّة، غير أنّنا بحاجة إلى شىء من الجهد، ودعم القرار بقرارٍ سياسىّ، تتمثّله قدوةٌ حَيَّةٌ ذات تأثيرٍ على الجماهير الشعبية.

ونحن إن سلمنا بوجود خصومةٍ أو صراعٍ بين العامية والفصحى فالعامية تتخذ الجهلة بالفصحى، وقليلى الخبرة بها لسانها المهاجم؛ لأنهَّم دعاتها، والفصحى تتخذ لسانها المدافع من الأدباء، والبلغاء، وذوى البيان، وأصحاب العلم، والوجاهة لسانها المدافع، لأنهّم حماتها، وكراهية من يكره الفصحى لاترجع إلى نقص فيها، أو قصورٍ فيها، وإنّما ترجع إلى قِلّة العلم بها، وسوء الفهم لها. ومعنى ذلك تغلُّب العاميّة لا لأنها أفضل، ولكن لأنّها أسهل، فإنّ تحصيلها لايحتاجُ إلى كتابٍ ومعلّم ومدرسة، وإنّما يحتاج إلى بواب وخادم وشارع! ومعنى تغلّب العاميّة فصل الأدب عن الدين، وقطع الحاضر عن الماضى.

والسؤال هنا هل على العرب أن يرجع إلى الحديث بالعربية الفصحى؟ أو على الأقل التقريب بين اللغة التى يتحدثها وبين الفصحى، بالتركيز على الكلمات والأساليب الفصيحة فى اللهجة، وترك ما دون ذلك؟ أم أن عليه فقط أن يستخدم العربية الفصحى باعتبارها لغة رسمية ولغة أدبية فقط؟

١. اللغة العربية وخصائصها

اللغة العربية إحدى اللغات السامية، وانشعبت هى وهن مهدهم لتكاثر عددهم اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط، زاد هذا الاختلاف انقطاع الصلة وتأثير البيئة وتراخى الزمن حتّى أصبحت لكلّ لهجة منها لغة مستقلة. المراد باللغات السامية، اللغات التى تكلّم بها نسل سام بن نوح. (زيدان، ١٩٨٧م: ٥١) وللغة العربية لهجات كثيرة ولكن لهجتا تميم وقريش هما اللهجتان الرئيسيتان بينها؛ لقد أتيح للغة قريش أن تتبوا المكانة الأولى بين اللهجات العربية، فأصبحت هى

الفصحـــى المقصودة عند الإطلاق وكان على اللغويين القدامى أن يعنوا بها عناية خاصة. (الصالح، لاتا: ٧٢)

تعـــدّ اللغة العربية أهم مقومـــات الثقافة العربية الإســـلامية، وهى أكثر اللغات الإنسانية ارتباطاً بعقيدة الأمة، وهويتها، وشخصيتها. لذلک صمدت أكثر من سبعة عشـــر قرناً ســـجلاً أميناً لحضارة أمتها، وازدهارها، وشـــاهداً على إبداع أبنائها، وهم يقودون ركب الحضارة التى سادت الأرض حوالى تسعة قرون. (مدكور، لاتا: ١٨٢)

لذلک اتسمت بسمات متعددة فى حروفها، ومفرداتها، وإعرابها، ودقة تعبيرها، وإيجازها، وهذه الســـمات جعلت أرنست رينان يقول فيها: «من أغرب المدهشات أن تنبت تلک اللغة القومية، وتصل إلى درجة الكمال وســـط الصحارى، عند أمة من الرحّل، تلک اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحســـن نظـــام مبانيها.» (الجندى، لاتا: ٢٨) أما الأمريكى (وليـــم ورل) فيقول: «إن اللغة العربية من اللين، والمرونة، ما يمكنها من التكيّف وفق مقتضيات هذا العصر، وهى لم تتقهقر فيما مضى أمام أية لغة أخرى، من اللغات التى احتكّت بها. وستحافظ على كيانها فى المستقبل، كما حافظت عليه فى الماضى.» (المصدر نفسه) ويرى المستشرق الإيطالى (جويدى) «أن اللغة العربية الشريفة آية للتعبير عن الأفكار، فحروفها تميّـــزت بانفرادها بحروف لاتوجد فى اللغات الأخـــرى، كالضاد، والظاء، والعيـــن، والغين، والحاء، والطاء، والقاف، وبثبات الحروف العربية الأصيلة، وبحركة البناء فى الحرف الواحد بين المعنيين، وبالعلاقة بين الحرف والمعنى الذى يشير إليه.أمـــا مفرداتهـــا فتميّزت بالمعنى، والاتســـاع، والتكاثر، والتوالـــد، وبمنطقيتها (منطقيـــة فى قوالبها)، ودقة تعبيرها، من حيـــث الدقة فى الدلالة والإيجاز، ودقة التعبيرعن المعانى.» (السيد، ١٩٨٨م: ٢٠٢-٢٠٣-٢٠٨-٢٠٩)

لذلـــک قال الإيطاليون: «إن لغة العرب تمتاز بجمالها، وموســـيقاها، والتفاضل بين اللغات يكـــون فى كثرة إنتاجها الأدبى والفكرى لا فى عدد ألفاظها.» والعالم الألمانـــى (فرينباغ) يشـــير إلى غنى اللغـــة العربية فى قوله: «ليســـت لغة العرب أغنى لغات العالم فحســـب، بل الذين نبغوا فى التأليف بها لايمكن حصرهم، وإن اختلافنا عنهم فى الزمان، والسجايا، والأخلاق، أقام بيننا نحن الغرباء عن العربية، وبين ما ألفوه، حجاباً لانتبيّن ما وراءه إلا بصعوبة.» (الجندى، لاتا: ٢٨)

واللغة العربية تفوقت على اللغات السامية الأخرى ولها من صفتين أساسيتين هما الاشـــتقاق والإعراب؛ والعرب يتكلّمون لغة معربة فطروا عليها وكذلک البلاغة والإعـــراب ملكة لغوية عندهم. يقال: «كانت العـــرب تنطق بالطبع، وليس كذلک وإنّما هى ملكة لســـانية فى نظم الـــكلام.» (ابن خلدون، ١٩٦٧م: ۴۶۵) والإعراب من خصائص اللغة العربية وهو مصدر "أعْرَب" والتى تعنى تبيين الشىء أو توضيحه وقد كان الإعراب انعكاســاً للواقع اللغوى الحى فـــى الجزيرة العربية. (كريم زكى، ٢٠٠٢م: ١۶)

والذى نلاحظه أنّ العربية لاتستســـيغ الابتداء بالســـاكن من الحروف، ولذلک حرف اللسان لاينطلق بالساكن من الحروف. (الفراهيدى، ١٩۶٧م: ١٧۶) والعربية لاتجيـــز هذا كما أجازت ذلـــک اللغات الأجنبية الكثيرة، ولهذا يســـتعان بالهمزة المفتوحة للتوصل إلى النطق بالساكن متخذة وسيلة أو قل معبراً إلى هذا الساكن من الحروف ليظهر فى سكونه. (السامرائى، ١٩٨٧م: ٣٨) وممّا سبق نرى بأنّ أهمّ ما يميز اللغة العربية من اللغات الأخرى ما يلى:

١. هى من أقدم اللغات الســـامية. ٢. نزل بها القرآن الكريم. ٣. هى من اللغات التحليليـــة والمتصرفة التى تتغير أبنيتها بتغير المعانى وتحلل أجزاؤها المترابطة فيمـــا بينها بروابط تـــدلّ على علاقتها ومن هذا الصنف اللغـــة الهندية. ۴. اعتماد العرب الأمين على الأذن والسماع أكثر من العين والبصر أدى إلى صقل اللغة من الوجهة الصوتية. ۵. لكلّ حرف فيها مخرجه وصوته الخاص به. ۶. ســـعة مفرداتها وتراكيبها. ٧. ســـعتها فى التعبير وســـعة الإيجاز. ٨. قدرتها على التعريب، واحتواء الألفاظ من اللغات الأخرى بشروط دقيقة معينة. ٩. العناية بجنسى الذكر والأنثى فـــى الكلمات. ١٠. فيها خاصيـــة الترادف، والأضداد، والمشـــتركات اللفظية. ١١. ظاهرة الإعراب: تتفوق اللغة العربية بهذه الظاهرة عن باقى لغات الإنســـانية حيث تتيـــح الفرصـــة للفظة كى تأخذ حريتهـــا تقديماً وتأخيراً مـــع احتفاظها بموقعها الإعرابـــى. ١٢. غزارة صيغها وكثرة أوزانها. ١٣. ظاهـــرة المجاز، الطباق، الجناس، المقابلة، الســـجع والتشـــبيه. ١۴. فنون اللفظ كالبلاغة الفصاحـــة وما تحويه من محسنات. ١۵. كانت اللغة العربية هى اللغة الموسيقية الشاعرة والتى تملک أكبر معجم لغوى.

٢. لهجات العرب

اللهجــة فى الاصطلاح العلمى الحديث هــى مجموعة من الصفات اللغوية فى بيئة خاصة. وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوســع، وأشمل، وتضم عدة اللهجات، لكلّ منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعاً فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين اللهجات. (أنيس، ١٩٩٥م: ١٦)

وقد عرفت اللغــة العربية اختلاف اللهجات منذ العصر الجاهلى، فقد كان لكل قبيلة مــن قبائل العرب الكبــرى: كقريش، تميم، طىء، هذيــل وغيرها لهجتها المختلفة عن لهجات سائر القبائل اختلافات يسيرة تتعلق:

بالحركة والسكون نحو: "هو" بضم الهاء وسكونها، ونحو مَعَكم ومَعكم.

بالحركات نحو: "نســتعين" بفتح النون وكسرها، قال الفراء: هى مفتوحة بلغة قريش وأسد ومكسورة فى لغة غيرهم.

بتحقيق الهمزة وتسهيلها نحو: مستهزئون ومستهزون.

بالتقديم والتأخير نحو: صاعقة وصاقعة.

وبالتذكيــر والتأنيــث، فمنهم من يقول: هذه البقرة، هــذه النخل ومنهم من يقول: هذا البقر وهذا النخل.

وبالوقف على ما رسم بالتاء بين الهاء والتاء نحو: هذه أمه، هذه أمة. (السيوطى، ٢٠٠٩م: ٢٥٥/١)

غير أنّنا نلاحظ أنّ العلماء القدامى لم يســتخدموا مصطلح اللهجة للتعبير عن الاختلافات والتمايزات اللغوية بين القبائل العربية، وإنّما اســتخدموا مصطلح اللغة فقالــوا: لغة الحجاز، لغة قريش، لغة تميم، ولغة أســد، وإلــخ... وهم يعنون بذلك اللهجة واستخدموا فى بعض الأحيان مصطلح اللحن. (النادرى، ٢٠٠٥م: ١٥)

وهناك صراع لغوى على مر التاريخ وقد تحتاج عملية الصراع إلى قرون عديدة إلى أن تتم ســيطرة لغة على لغة أخرى. لذلــك تغَلبُ لغة على لغة أخرى يكون تدريجيــا وليــس فجائيا. ومن خلال الصــراع اللغوى يمكــن أن تتغلب لغة على لغة أخرى فى حالتين: الحالة الأولى: نســبة نمو سكان أحد الشعبين المجاورين وتضييق حدود الشعب المتزايد فى العدد إلى درجة يلجأ أبناء الشعب إلى حدود

الشعب المجاور. ويزداد الاحتكاك ويشتد الصراع اللغوى مما يؤدى إلى السيطرة. ويُشترط أن تكون لغة الشعب الكثير السكان لغة أكثر رقيا وأفرادها أكثر ثقافة وحضارة. مثلا: طغت اللغة الألمانية على المناطق المجاورة لألمانيا بسويسرا والنمسا، وقضت على لهجاتها الأولى. الحالة الثانية: "تغلغل نفوذ أحد الشعبين فى الشعب المجاور" فتتغلب لغة الجانب الأكثر قوة ونفوذا وحضارة. مثلا: هزيمة لغة الباسك أمام اللغة الفرنسية واللغة الإسبانية. (وافى، لاتا: ٢٤٠- ٢٤٣) وقد تبدو هذه العملية غير إنسانية أو ربما استعمارية حين تسيطر لغة قوية على لغة ضعيفة. ولكننا نشرح هنا ما جرى وما يجرى فى الواقع بغض النظر عن اتفاقنا أو عدم اتفاقنا مع الحدث، فليس كل ما هو واقعى إنسانى أو مقبول. لقد احتكت اللغة العربية باللغات اليمنية القديمة ودخلت فى صراع معها مدة طويلة إلى أن تمكنت من السيطرة عليها فى المراحل الأخيرة من العصر الجاهلى. ومع ذلك فقد أصابت اللغة العربية بعض التحريف فى الأصوات والمفردات والقواعد، فأوجدت لهجات عربية جديدة فى الجنوب، مختلفة عن لهجات الشمال. ومع السنين تمكن العرب فى الشمال بالتفاهم مع أهل اليمن، ثم توحيد اللغة إلى حد كبير، فجاء الشعر الجاهلى بلغة واحدة رغم بقاء بعض اللهجات اليمنية الصغيرة فى بعض المناطق النائية على حالها. ومن هذه اللهجات، اللهجة الأخكيلية، واللهجة السقطرية، واللهجة المهرية إلى أن بعُدت هذه اللهجات عن أصولها الأولى. وبعد مجىء الإسلام تطورت اللغة العربية وما تزال تتطور. وظهرت لهجات جديدة تختلف عن اللهجات التى كانت موجودة فى الجاهلية والإسلام والعصور التى لاحقتها. ولكن اللغة العربية الفصحى بقيت تقريبا على حالها كما كانت فى عصر الاسلام، لأنه من طبيعة لغة الكتابة أنها بطيئة التغيير فى الأصوات والقواعد. وسادت فكرة أن اللغتين اليمنية والعربية تمثلان لهجتين للغة العربية. ولذلك قسموا اللغة العربية على (العربية القحطانية - العاربة) أو لغة الجنوب أو اللغة الحميرية، و(العربية العدنانية - المستعربة)، أو لغة الشمال، أو اللغة المضرية (الحجاز، ونجد، وما جاورهما). وهذا التقسيم الأخير صحيح فقط بعد تغلب اللغة العربية على لهجات المنطقة. ولكنه ما زال تقسيما غير صحيح فيما يتعلق باللغات اليمنية القديمة. (انظر: وافى، ١٩٥٦م: ٧٩-٨٦)

ونشير الآن إلى أهمّ لهجات اللغة العربية:

١.٢. لهجــة قريش: يميل كثير مــن العلماء والباحثين، قديمــاً وحديثاً، إلى تمجيد لهجة قريش، وتأكيد تفوقها على ســائر اللهجات العربية. يقول ابن فارس: «أجمع علماءنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم، أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة. وذلک أنّ الله- جلّ ثناءه – اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم النبى الرحمة محمداً (ص)، فجعل قريشــا قطّان حرمه وجيران بيته الحرام. وكانت تقوم قريش بتعلم المناســک بالحجاج وغيرهم يفدون إلى مكة. وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشــعارهم أحســن لغاتهم وأصفى كلامهم. فصــاروا بذلک أفصح العــرب. ألا ترى أنک لاتجد فى كلامهــم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشــة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذى تسمعه من أســد وقيس، مثل: تِعلمون ونِعلم، ومثل: شِعير وبِعير و....» (ابن فارس، ١٩٦٤م: ٢٣) وارتفعت قريش فى الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشــة ربيعة، كسكســة هــوازن، تلتلة بهراء وعجرفية ضبــة. (ابن جنى، لاتــا: ١٣/٢) وقد تأثر كثير من الباحثيــن المحدثين بمذهب القدماء، فــى تمجيد لهجة قريش، واعتبار أنّها هى التى ســادت على غيرها من ســائر اللهجات العربية، وتحولت إلــى اللغة العربية الفصحى الباقية.

٢.٢. اللهجة المعينية: هى منسوبة إلى المعينيين. وقد اتفق جملة من فحول المستشــرقين «علــى أن معين أقدم دولــة فى اليمن بدليــل أن كرب إل وطر السبئى قضى نهائيا على عرش اليمن، وأسس ملكاً عظيماً، بقى له الحول والطول مــدة طويلة من التاريخ. عاش المعينيون على شــاطىء البحر، وعرفت عاصمتهم باســم "قرنا" أو "قرنانا"، وقد سيطروا على التجارة بين الهند وبلاد العرب، فكانت قوافلهم التجارية تتجه من ســواحل المحيط الهندى إلى شمال بلاد كنعان. وقد اجتهد العالم هومل فى تعيين تاريخ دول معين، ســبأ، حمير، حضرموت وقتبان، اعتمــاداً على النقوش القليلة التى وصلت إلينا.» (النادرى، ٢٠٠٥م: ١٢٠- ١٢١) ولكن أغلب النقوش غامضة وأخبارها ناقصة وأسماء ملوكها غير كاملة وفوق ذلک فإن هذه النقوش لاتشتمل على تواريخ يمكننا أن نعين زمن تدوينها.

٣.٢. لهجة تميم: إنّ فی المصادر والمعجمات اللغوية ما يشـير إلى أن كثيراً من قواعد اللهجة التميمية أقوى قياسـاً من بعض القواعد القريشـية، بل فيها ما يكاد الباحث يسـتنتج منه باطمئنان أن لهجة تميم كانت فی كثير من مفرداتها وتراكيبها هی التی ينطق بها غالباً أبناء اللغة العربية. (الصالح، لاتا: ٧٢)

٤.٢. اللهجة السبئية: هی منسوبة إلى السبئيين الذين أسسوا مملكة مهيبة هی مملكة سبأ التی قامت على أنقاض مملكة معين، وكانت عاصمتها "مأرب". وقد ورد ذكر سـبأ فی القرآن الكريم. ويبدو أنّه كان لسـد مأرب دور كبير فی خصب تربة مدينة مأرب وازدهار مزارعها. وقد امتد عصر قوّة هذه الدولة زمناً طويلاً، اسـتغرق عهود بابل، آشور، اليهود، الفرس، اليونان والرومان. ظلت هذه اللهجة السبئية سائدة حتى فی أثناء الحكم الحبشی الأول. (النادری، ٢٠٠٥م: ١٢٢)

٥.٢. اللهجـة الحميرية القديمة: هی اللهجة المنسـوبة إلـى جماعات حمير. ويبدو أنّ الحميريين حاربوا السـبئين زمناً طويلاً دون جدوى، وكذلک كان حال اللهجة الحميرية فی صراعها مع اللغة السـبئية، إلى أن جرى طرد الأحباش للمرة الأولى سنة ٤٠٠ م، ثمّ عاد الأحباش فتغلبوا على اليمن وأسقطوا آخر ملوكها، وهو "ذونواس" الذی انهزم أمامهم سـنة ٥٢٥ م. ودخلت اليمن إذّاک حقبة جديدة من الاحتلال الحبشی، استمرت حتى سنة ٥٧٠م، عندما غزتها جيوش الفرس واستمر حكم الفرس فی اليمن إلى عهد الفتح الإسلامی. (المصدر نفسه: ١٢٢)

٦.٢. اللهجة القتبانية: هی منسـوبة إلى القبائـل القتبانية التی أقامت دولتها فی المناطق الساحلية الواقعة شمال عدن. وقد خاض القتبانيون حروباً عديدة مع السبئيين، وهی حروب انتهت بهزيمة القتبانيين واندماج قبائلهم فی مملكة سبأ، فی أواخر القرن الثانی قبل الميلاد. (المصدر نفسه: ١٢٣)

٣. تقسيم النشاط اللغوی

اللغة ليست مجرد التعبير عن الأفكار تكوّنت، بل هی جزء لايتجزأ من عملية التفكير نفسـها، أو لنقل، إن تطوير العلوم مرهون بتطويـر اللغة. وهی نتيجة لها مـن الأهمية والخطورة ما لايحتاج منّا إلى بيان، لأنّه فی هذه الحالة يصبح محالاً أن يتغير للناس فكر دون أن تتغير اللغة فی طرائق، ووسائل استخدامها، وينقسم

النشاط اللغوى إلى نوعين: اللغة الفصحى واللهجات المتباينة:

۱.۳. اللغة الفصحى: لاشّك فى أنّ القارئ يعلم أنّ للعربية مستويات من الفصاحة والبيان. وإنّ لفظ العربية الفصحى يقصد به هنا، تلك الصفات المشتركة بين مختلف مستويات الفصاحة فى العربية على مرّ العصور. هذا مع العلم بأنّ بعض المفردات فقط من فصحى العربية قبل قرون عديدة ومنذ العصر الجاهلى هى التى يمكن أن يصعب فهمها على الإنسان العربى المعاصر. والفصحى هى لغة قريش، فقد روى أنّ عبيد الله قال: «أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومجالسهم، أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة. وذلک أنّ الله – جلّ ثناؤه – اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبى الرحمة محمداً (ص) وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائرهم وسلائقهم التى طبعوا عليها، فصاروا بذلک أفصح العرب.» (ابن فارس، ۱۹۶۴م: ۶۷) ويدلّ الشعر الجاهلى إذن دلالة واضحة على أنّ القبائل العربية المختلفة اصطلحت على لغة مشتركة متداولة فى أنحاء واسعة امتدّت من اليمن حتى الفرات. وللعرب فى نشوء هذه اللغة الفصحى رأى يذهب إلى أنّها عين اللهجة القريشية لأنّ قريشاً كانت أجود العرب انتقاء للفصيح وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم. (ضيف، ۲۰۰۳م: ۱۳۴)

ولقد ذهب المستشرقون فى أصل العربية الفصحى مذاهب شتّى تناقض أساساً ما اعتقده العرب منذ القديم حول صلة الفصحى باللهجة القريشية والحق أنّ مذاهب المستشرقين فى هذا الصدد لاتستند إلى أدلة علمية مقبولة، وهى لاتتجاوز حدود الحدس والفرض. فنولدكه يرى أنّ الفصحى تركّبت من اللهجات الأساسية فى جزيرة العرب كالحجاز، نجد وإقليم الفرات، لأنّ الاختلافات بين هذه اللهجات كانت قليلة وتبعه جويدى فى الزعم بأنّ الفصحى ليست لهجة معينة لقبيلة مخصوصة، بل هى مزيج من لهجات نجد وما جاورها. ولكن الحقّ أنّ أقرب الآراء إلى الحقائق التاريخية، واللغوية هو القائل بنشأة الفصحى فى قريش لأسباب دينية، اقتصادية، سياسية، وأدبية؛ وفى قريش نفوذ السلطة وقوّة المراكز لأنّها أمّ القرى فالعربية الفصحى توصف حقاً بأنّها لغة انتقائية مشتركة تشكّلت

أصولها وتوضّحت مقاييسها لدى قبيلة قريش. (قدور، ١٩٩٩م: ١١٦)

٢.٣. اللهجات المتباينة: ومنهـا ما يكون مذموماً وقد أورد طرفاً من خصائص بعضهـا فى باب القول فى اختلاف لغات العرب: اختـلاف لغات العرب من وجوه: الاختلاف فى الحركة: كقولنا نسـتعين ونِستعين: بفتح النون وكسرها. قال الفراء وهى مفتوحة فى لغة قيس، وأسد، وغيرهم يقولونها بكسر النون. ومنه الاختلاف فى التقديم والتأخير نحو: صاعقة وصاقعة و.... (المصدر نفسه: ٤٩) وتلك اللهجات المتباينة التى وفدت من شـبه الجزيرة قد غزت بيئات معمورة يتكلم أهلها لغات غيـر عربية، منها القبطى، الرومانى، الفارسـى، الآرامـى، البربرى، وغير ذلك من لغات كانت شائعة فى البيئات التى تناولها الفتوحات الإسلامية. وهنا كان لابدّ من صراع بين اللهجات الغازيـة والمغزوة أدى فى معظم الحالات إلى انزواء اللهجات المغزوة أو القضاء عليها قضاء تاماً. فتركت القبطية قبل انزوائها بعض الآثار الصوتية فى ألسـنة المصريين حين تكلموا اللهجات العربية. والقبطية ظلت يتكلم بها فى بعض النواحى المصرية حتى القرن السـابع عشـر. وقد حدث ما يشـبه هذا فى البيئة العراقية، والشـامية، والمغربية، وهكذا. (أنيس، ١٩٩٥م: ١١-١٢) فتطوّرت اللهجات العربية الحديثة فى بيئاتها المختلفة تطوّرات مستقلة، لمّا أحاط بها من ظروف اجتماعية مختلفة فى كلّ بيئة من تلك البيئات ولمّا طرأ عليها بعد الفتح العربى من ظروف سياسـية اختلفت أيضاً فى تلك البيئات، فهناك آثار فارسية، تركية، وأوروبية (فرنسية وايطالية بل وإنكليزية أيضاً).

واللغة العربية العامية التى يتحدث بها اليوم فى البلاد العربية، فإنّ وصف هذه اللغة من نواحيها المختلفة أمر سهل ميسور، إذ يقال مثلاً: إنّ الاستفهام يعبر عنه بنبـر أحد أجزاء الجملة، وإنّ النفى يكون بالأداة مثلاً: "مش" وإنّ ترتيب الجملة فيها: فاعل + فعل + مفعول إلخ. ولكن معرفة سـرّ وصول هذه النواحى المختلفة، من صوتية، صرفية، تركيبية، دلالية وغيرها، إلى ما وصلت إليه، كان من الممكن أن يظـل لغزاً، لولا معرفتنـا بالعربية الفصحى. وكان من الممكن أن يزداد وضوح التطـور وأسـراره فى هذه اللغة العامية، لو أنّنا توصلنـا إلى معرفة حلقات التطور المختلفـة، من الجاهليـة حتى الآن. (بلاسـى، ١٩٩٩م: ٥٠) وقد يطلق بعضهم على العامية أسـماء أخرى كالمحكية، الدارجة، اللهجة الشائعة، وسواها. ويبدو أنّ

العامية بدأت تظهر فى العالم العربى، فى عصر الفتوحات الإسلامية، بعد اختلاط العرب بالأعاجم وتفشى اللحن بين الناس، غير أنّها لم تتميز عن الفصحى تميزاً واضحاً إلّا بعد زمن يصعب تحديده على وجه الدقة، استطاعت خلاله أن تكتسب سماتها الخاصة، فى الألفاظ، دلالاتها، فى المادة الصوتية والأساليب، التراكيب وقواعد النحو. (النادرى، ٢٠٠٥م: ٣٤٨)

ويرد علماء اللغة نشوء اللهجات فى العالم إلى عاملين رئيسين:

أحدهما: الانعزال الجغرافى، والاجتماعى بين بيئات الشعب الواحد: وذلك عندما تفصل العوامل الطبيعية من جبال، أو أنهار، أو صحارى، ونحوها بين بيئات اللغة الواحدة، فتنعزل إحداها عن الأخرى وتتطور كلّ بيئة فى ظروف بيئة واجتماعية عن ظروف البيئة الأخرى. (المصدر نفسه: ١٥٣-١٥٤) وخير مثل يمكن أن يضرب لهذا الانعزال الذى يشعب اللغة الواحدة إلى لهجات، تلك اللهجات العربية القديمة فى جزيرة العرب قبل الإسلام. (أنيس، ١٩٩٥م: ٢٣)

الثانى: الصراع اللغوى الناجم عن الغزو أو الهجرة أو التجاور: وهو صراع لاتكاد تنجو منه لغة من اللغات. وإنّ تطوّر اللغة المستمر فى معزل عن كلّ تأثير خارجى يعدّ أمراً مثالياً لايكاد يتحقق فى أية لغة. بل على العكس من ذلك فإنّ الأثر الذى يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيراً ما يلعب دوراً هاماً فى التطور اللغوى. واللهجات العربية التى انتشرت فى العالم الإسلام بعد الفتح مثال من أمثلة هذا الصراع اللغوى. (المصدر نفسه: ٢٤)

٤. صلة اللهجات المعاصرة بالفصحى

تعدّد اللهجات كان موجوداً عند العرب من أيام الجاهلية، حيث كانت هناك لهجة لكلّ قبيلة من القبائل وقد استمر الوضع هكذا بعد مجىء الإسلام. ومن الآراء الواردة أنّ الازدواجية اللغوية كانت موجودة عند العرب من أيام الجاهلية، حيث كانت هناك لهجة لكل قبيلة من القبائل وبالإضافة إلى هذه اللهجات فقد كانت هناك لغة واحدة مشتركة تكوّنت من مزيج من لهجات وسط وشرق شبه الجزيرة العربية بتأثير من التجارة والحج وغيرها. وقد كان التواصل بين أفراد القبيلة الواحدة يتم بواسطة لهجتها الخاصة، أمّا عندما يخطب شخص ما أو

يتحدث إلى أشخاص من قبائل أخرى فيستعمل حينها اللغة الواحدة المشتركة. وقد استمر الوضع هكذا بعد مجيء الإسلام. ويرجح أنّ العامية الحديثة بدأت حين الفتوحات الإسلامية، حيث أنّ المسلمين الجدد فى بلاد الأعاجم (والتى أصبح العديد منها اليوم من البلدان العربية) بدأوا بتعلّم العربية لكنّهم وبشكل طبيعى لم يستطيعوا تحدثها كما يتحدثها العرب بالضبط، وبالتالى فقد حرّفت قليلاً. وفى ذلک الوقت لم يكن الفرق واضحاً كثيراً، لكن بالتدريج حرفت العربية وتغيرت صفاتها الصوتية وتركيب الجمل فيها إلخ....حتّى تحوّلت إلى اللهجات العامية الحديثة. (ويلز، ٢٠١٠م)

ومسألة تقريب العامية من الفصيحة أمر يتعلق بالزمن الطويل، فليس من الممكن القيام بمشروع أو بحث للوصول إلى هذا الهدف الخطير ومتعلق بالزمن، إنّ خير الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا هو نشر العلم والثقافة بين أبناء البلد الواحد بحيث يتيسر لجميع أبناء البلد قسط من العلم والمعرفة ومن شأن هذا أن يعمل على رفع مستوى اللغة المستعملة، التى هى قريبة من الفصيحة. ونستطيع أن ندلل على قربها من الفصيحة إذا نظرنا إلى اللغة التى يستعملها المثقفون اليوم فى محادثاتهم وفى استعمالاتهم اليومية، فهى لغة فى مجموعها تكاد تخلو من اللفظ العامى الدخيل، فمجموعة ألفاظها على العموم فصيحة ويبدو قربها من الفصيح إذا وازنا بين هذه اللغة التى يستعملها المثقف وهو من أسرة جاهلة واللغة التى يستعملها سائر أفراد أسرته والتى هى موغلة فى العامية الدارجة. (السامرائى، ١٩٨٧م: ١٣)

إذا كانت اللغة العربية الفصحى هى الرابط القومى الموحّد لأبناء العربية، باعتبارها اللغة المشتركة وهى لغة القرآن والموروث العقائدى ولغة الشعر والأدب الواحد، ولغة المعرفة والعلم، فإنّ اللهجات العامية فى الأقطار العربية مختلفة إلى الحد الذى لايستطيع الإنسان المشرق العربى مثلاً فهم لهجة الإنسان العربى الجزائرى أو المغربى، وهذا معناه: أنّ إبدال الفصحى بالعامية عملية تهدف إلى تجزئة الأمة الواحدة إلى كيانات لغوية متباينة تعمل على إعاقة تحقيق الوحدة العربية، وتقطيع الصلات والوشائج التى تكوّنت عبر الزمن بفضل اللغة الواحدة. وإنّ التجربة التاريخية للأمة العربية فى ممارسة جميع الأنشطة قد دوّنت باللغة

العربية ووصلت إلينا وتمت معرفتنا لها من خلال الآثار، فإذا ما تمّ إحلال اللهجة العامية محل الفصحى، فإنّ علينا أن نذكر بأنّ هذا التراث العربى سيصبح مجرد تركة ثقيلة لايستطيع الإنسان العربى الاطلاع عليه ودراسته وبذلک تقطع الصلة بين ماضى الأمة وحاضرها. (ياسين، ٢٠٠٥م: ٥١)

والمشكلة اللغوية قائمة فى العصرالحاضر كما أسلفنا، وذلک لأنّ العربية الفصيحة المكتوبة هى غير العربية المستعملة فى التخاطب وغير اللهجات الدارجة التى لم ترق إلى لغة المثقفين وهى فى مادتها نماذج متأخرة وليس قيام المشكلة على هذا الوجه بمستحيل الحل. فشيوع الثقافة وتيسير المعرفة لأبناء العربية على شكل عام كفيل برفع مستوى اللغة إلى الحد الذى كانت عليه العربية فى مختلف عصورها، فلم يسلم عصر من عصور التاريخ اللغوى من ازدواج فى اللغة. وربّما كانت العامية الدارجة قريبة من الفصيحة لغة الكتابة، وذلک بسلامة أبنيتها وبتخير ألفاظها الصحاح العربية، ولكنّها متحللة من ضوابط الإعراب؛ فالمتكلمون بها يلتزمون الإسكان فى صورها، وهذا ما نصبوا إليه فى تقريب العامية من الفصيح. فبين اللهجات جميعها وبين العربية الفصيحة كما عرفناها فى لغة القرآن أو فى لغة ما صحّ من النصوص الجاهلية فروقاً بعيدة ومعنى ذلک أنّه ليس من المعقول اتخاذ أية لهجة من هذه اللهجات صورة للعربية الأولى، أو صورة للمرحلة التى سبقت الفصيحة المعروفة فى لغة القرن الأول الهجرى.

جوهر مشكلة الفصحى والعامية كما يرى بعض الباحثين، أنّ العربى اليوم نفسه مضطر لاستخدام أداتين لغويتين، تختلف إحداهما عن الأخرى لناحية الأصوات، قواعد بناء الجملة، تصريف المشتقات ودلالات الألفاظ والأساليب. وإحدى هاتين الأداتين، وهى العامية مستخدمة فى الحديث اليومى دون الكتابة، ويكتسبها العربى بالتقليد والمحاكاة بدءاً من مراحل الطفولة الأولى، فتنمو معه، وتتأصل فيه. ويبدأ استخدامه لهذه الأداة استخداماً ميسوراً سلساً منذ تلک المراحل. فى حين أنّه بحاجة إلى تعلم الفصحى فى المدرسة بما يشبه تعلم اللغة الأجنبية ويقضى سنين طويلة قبل أن يتمكن من إتقانها واستخدامها استخداماً يقتصر فى كثير من الأحيان على الكتابة دون الحديث اليومى. ويغالى بعض الباحثين، أحياناً فى عرض جوهر المشكلة وحشد مخاطر الثنائية وآثارها

على الفكر، التربية، الشخصية، الأخلاق والفنون الجميلة. (يعقوب، ١٩٨٦م: ١٦٥) وتعـدّدت آراء الباحثين والمهتمين بموضـوع ثنائية الفصحى والعامية، وهم كثر، علت الأصوات واستهلک كثير من الحبر فی مقالات وكتب؛ وهم مقترحون حلولاً لهذه الثنائية التی تعامل أكثرهم معها على أنّها مشكلة خطيرة ينبغی انهاؤها. وقد صنف بعض الباحثين اقتراحات الداعين إلى القضاء فی خمسة اتجاهات:

١. اتجاه يرى أن نسـمو بالعامية إلى الفصحى، فنعمل بمختلف الوسـائل كی يتكلم الناس العربية الفصحى فی جميع شؤونهم.

٢. اتجاه يطالب بالتخلی عن العربية، فصحى أو عامية، إلى لغة أجنبية.

٣. اتجاه يدعو إلى نوع من الملاقاة والتوحيد بين الفصحى والعامية.

٤. اتجاه يدعو إلى ما سـمّاه "اللهجة العربية المحكية أو المشـتركة"، أو "لغة المتأدبين فی جميع الأقطار العربية" أو "لغة مثقفی العرب".

٥. اتجاه يرى اعتماد العامية فی الكتابة العلمية والأدبية، وفی مختلف الشؤون التی نستخدم فيها الفصحى. (المصدر نفسه: ١٤٨)

وقد لاحظ الدكتور إميل بديع يعقوب «أنّه إن كانت "اللهجة العربية المشتركة" تختلف عن العامية التی نسـمعها فی مجتمعنا، فإنّنا لانسـتطيع فرض مثل هذه اللغـة على مخاطبات الناس، لأنّ أحـداً من المواطنين العرب لن يرضی بالتخلی عن عاميته ولهجته. ذلک أنّ العامية أسـهل على المتكلّم بها من أی لغة. أمّا إذا اصطنعنا "هذه اللهجة العربية المحكية المشـتركة" فی كتاباتنا فقط، فإنّ مشكلة ثنائيـة اللغـة تتفاهم، إذ يصبح عندنا ثلاث لغات: لغة عاميـة يتكلّمها الناس فی حياتهم العادية، ولغة موضوعة نستخدمها فی كتاباتنا، ولغة فصحى نتعلّمها لفهم تراثنـا؛ فنقع فی المحظور الذی حاولنا الهروب منـه وذلک بتخلصنا من الثنائية اللغوية، ووقوعنا فی ثلاثية لغوية أشد خطورة.» (وافی، ١٩٥٦م: ١٥٤)

يعتقد بعـض بأنّ الفصحى سـبب تخلف العرب، وذلـک لأنّ التخلف العربی وهوحقيقة لا مراء فيها، إنّما هو تخلف فرضته الحقب الاسـتعمارية المتتابعة على الأمـة العربيـة وهی حقب متصلة حتـی اليوم. وهو تخلف محمـی بإرادة الغرب الاستعماری وبواقع التجزئة والتفتت السياسی المفروض أيضاً بإرادة هذا الغرب ولا أدلّ على بطلان هذه الحجة من أن هذه اللغة الفصحى استطاعت أن تسود العالم

فی العصر العباسی الأول، تعلّمها الفرس، الهنود، الأتراک، الأوروبیون وغیرهم، لأنّها کانت لغة العلوم، والثقافة، والحضارة التی کان الغربیون بخاصة محرومین منها، یعانون ظلام قرونهم الوسطی. ولکن نلاحظ أنّ العامیة فقیرة فی المتن ولاتملک من المفردات إلّا جزءاً ضئیلاً جداً ممّا تملکه الفصحی. ثمّ إنّ العامیة، مع وجود القواعد فیها مضطربة القواعد والتراکیب والأسالیب، غامضة المعانی، متباینة الأصوات ضمن الدولة الواحدة والجماعة اللغویة الواحدة الناطقة بهذه العامیة. وحدثت معجزة لغویة فحوّلت العامیة إلی أداة للکتابة العلمیة والأدبیة، بدلاً من الفصحی. وإذا افترضنا جدلاً أنّ تلک المعجزة اللغویة قد حدثت یضمن لنا أن تبقی العامیة التی تحوّلت الی فصحی علی حالها قویة، متماسکة وهذا أمر حتمی الحدوث لأنّ من طبیعة لهجات الحدیث أن تتطور خلافاً للغة الکتابة، متأثرة بعوامل الاحتکاک اللغوی وهی کثیرة بالغة السهولة فی العصر الحاضر.

وإنّ أمر اعتماد هذه اللهجة العامیة أو تلک عائد للسلطة السیاسیة فی کلّ دولة عربیة لایکون إلّا بأن تصطنع کلّ منطقة، بل کلّ مدینة وبل کلّ قریة لغة کتابة تتفق مع لغة حدیثها وبذلک یصبح فی البلاد العربیة آلاف من لغات الکتابة، بمقدار ما فیها من مناطق ومدن وقری ولایظنّ عاقلاً ینصح بمثل هذه الفوضی. (وافی، ۱۹۵۶م: ۱۵۸)

۵. هل تتغلب العربیة الفصحی علی اللهجات العامیة المختلفة؟

إذا نظرنا فی الانحطاط الذی طرأ علی اللغة بعد أن دالت دول العرب وضعفت شوکتهم فی العصر المغولی والعصر العثمانی، نجد أن ما نسمّیه انحطاطاً فی اللغة، لو أرونا تفسیر لما استطعنا أن نمثله إلّا بقصور اللغة عن مجاراة العلم وبتغلّب العامیة علیها. العامیة التی سارت إلی جنبها هذا الزمن الطویل فکانت تنازعها کلغة أجنبیة، کادت لاتقتصر فی منازعتها للفصحی علی أن تعزلها وتحل محلّها من ألسنة المتکلّمین. فقد کادت فی بعض الأحوال تصبح لغة الکتابة بعد أن أصبحت لغة التکلّم کما یظهر ذلک لمن تتبع سیر اللغة ورأی الحالة التی انتهت إلیها فی لبنان، سوریة ومصر فی آخر عهد المماليک. ویقول جرجی زیدان: «فلم ینقض القرن الثامن عشر حتّی أصبحت لغة الکتابة أشبه شیء بلغة العامة

لركاكة عباراتها مع ما فيها من الألفاظ الأعجمية والعامية.» (كفورى، لاتا: ۴۸)

وتشــكل العاميات العربية اليوم مزيجاً مــن كلمات الفصيحة محرفة ومفردات أعجمية وأصول أخرى لاتعرف هويتها المعجمية، وتشــترک جميع هذه العاميات بافتقارها إلى قواعد ثابتة، سواء على الصعيد الصوتى أو التركيبى أو الدلالى. يتضح ممّا ســلف أنّ اللهجات العربية المعاصرة هى امتــداد لتلک اللهجات المولدة، إثر انتشــار العرب مع الإسلام فى أمصار الدولة الإسلامية. (زكريا، ۲۰۰۵م: ۸۶) وهنا ســنعرض طرفاً من خصائص اللهجات المصرية ولاســيما اللهجة النموذجية فيها وهى اللهجة القاهرية، وما ظهر فيها من صفات خاصة، نمت واســتقلت مع الزمن وســنقصر فى هذه الإشــارة العابرة على بعض التطوّرات الصوتية فى هذه اللهجة وعلى تطوّر المعانى بعض الكلمات:

فقــدت معظم اللهجات المصرية بعض الأصــوات العربية القديمة، أمثال: الثاء، الــذال، الظاء والقاف واســتبدلت بها على الترتيب: التاء، الــدال، الضاد، الهمزة أو الجيم. مثلاً ينطقون الصّاد ســيناً، الطاء تاء، الضــاد دالاً، الظاء زاياً مفخمة وهكذا مثل: صقع: سكع فلاناً قلماً، غضر عنه أى انصرف. قد صرفت اللغة الفصيحة أنظار الناس عن لغة كلامهم، فلم يعنوا بما عرض لها من تطور مع الزمن ولهذا اتخذت فى الأفواه أشــكالاً وصوراً تباينت باختلاف الأجيال والعصور. والناس لايشــعرون ولايلحظــون تلک الفروق وإنّما وجهــوا كل عنايتهم الى لغــة الكتابة وهى اللغة الفصحى؛ فإذا انحرف الطفل فى الكلام بلهجة أبيه لم يجد من يعنى بتصحيح هذا الانحــراف والابقاء على صورة معينة فى الــكلام. فأخذت اللهجة مجراها الطبيعى وتغيرت جيلاً بعد جيلٍ. (أنيس، ۱۹۹۵م: ۲۴۷-۲۴۸) يقول إبراهيم انيس: «نحن ننســب التطورات الحديثة إلى أصل قديم كان شــائعاً فــى بعض اللهجات العرب القدماء مثل التعبيرعن الزمــن الحالى أوعن العادة بفعل مضارع متصل بالباء فى غالــب الأحيان، أوبالدال أو القاف أوالعين فى أحيان أخرى وهذا الأمر شــائع فى لهجــات كلامهم وفى حديث خطابهم، انحــدرت هذه الظاهرة إلى لهجات كلامنا الآن فأصبح المصرى، أهل الشــام، شرق الأردن، أهل المكة وبعض جهات اليمن يقولــون مثلاً بيلعب، بيغنّى... إلــخ. ونرى فى لهجة بغداد أن يتصلوا الدال بالفعل المضــارع، فهم يقولــون: دا يلعب، دا يغنّــى. نرى النفى مع الشــين فى نحو: ما

تخفــش، ما جاش فى بلاد الشــام، مصــر، بلاد اليمن وجهات أخــرى من الدول العربية الحديثة وهــذه ظاهرة قديمة فى بعض اللهجات العربية القديمة انحدرت إلينا من تلك القبائل القديمة.» (المصدر نفسه: ۲۴۱ - ۲۴۲)

ينبغى أن يعمم استعمال العربية الفصحى المعاصرة فى المؤسسات التعليمية كافــة (الروضات، المــدارس، المعاهد والجامعات) إذ هى لغة المناهج الدراســية، فيدرّب التلاميذ على مهاراتها الأربع (الاستماع، التحدث، القراءة، والكتابة) ويلتزم المعلمــون بهــا. ونبّههوا إلى أنّ كلّ أســتاذ هو معلم للغة العربيــة بصورة مؤثرة غير مباشــرة. ويلتزم معلمو المواد الأخرى بالعربية الفصحى فى دروسهم، ليكونوا قدوة صالحة لتلاميذهم ويجب عليهم التحاور بها كلّما اجتمع لفيف منهم، وتهيأ الظروف والأجواء المتنوعة لذلك، فتُفعّل فى المدارس إذاعة الصباح، وإذاعة وقت الاســتراحة والمنتديات، والنشــاطات اللامهنجية وتُسخّر الجهود لينشط الطلاب والأســاتذة للحديث بالفصحى، حتّى تترسخ فيهم ملكتها وتملك ألسنتهم دربتها ويكــون أخذهم بالتدريب تدريجاً إلى أن تهجر العامية وتحل الفصحى محلها فى المؤسسات العلمية.

وكانت فى الشــام محاولــة يحكيها "ســعيد الأفغانى" عن مدرســة الأمينية والإسعاف الخيرى وكانت مندمجتين آخر العهد التركى، فالمدير وبعض المدرسين كانــوا يلتزمون التحــدث بالفصحى فى حوارهم مع الطلاب، وفــى إلقاء الدروس وفى التنبيهات العامة صباحاً وقبل الانصراف. (الأفغانى، ۱۹۸۷م: ۳۰) فهذا دليل إدراكهــم أهمية التواصل فى أثناء اليوم الدارســى باللغة العربية الفصحى، وأثرها على التكوين اللغوى والعلمى والثقافى للناشــئة. فاستخدام اللغة الفصحى يؤدى إلى معرفتها وفهمها، والتفكير المســتمر بها، ثمّ التحليل العميق لهذه المعلومات والتمييز بينها وتمثلها واستدعائها وقت الحاجة.

يزعــم بعض المعلمين أنّ من الأطفال من لايفهم ما يقولونه إذا تحدثوا معهم بالفصحــى، إنّ وجود لغة عليــا للعلم والأدب والفكر مع لهجــات محلية للتعامل ظاهرة طبيعية عرفتها العربية منذ العصر الجاهلى، وتعرفها الدنيا فى سائر اللغات الحية. لكن الاستعمار اســتغلّ هذه الظاهرة الطبيعية ليحارب الفصحى بلهجاتها الشــعبية، فراجت دعاوى تتهــم الفصحى بالعُقم والبداوة وتلقى عليها مســئولية

تخلفنا وتدعو للعامية وقد استمرت آثار هذه الدعاوى لدى بعض الفئات من الناس وفـــى الحقيقة إنّ هذه المفاهيم خاطئة، فالقرآن نزل بلســـان عربى مبين وجمع الناس عند لغته العليا ولم تحل اللهجات الشـــعبية دون فهم العامة لمّا يســـمعون مـــن نصوص الفصحى والطلاب غير عاجزين عن فهم كلام المعلّم إذا تحدّث بلغة القرآن من غير تقعُّرٍ وتفصُّحٍ ولذلک أهداف ايجابية وفوائد جمّة. هناک مواقف فى الحياة اليومية تتطلب اســـتعمال اللهجة العامية ولو اســـتعمل الفرد فيها الفصحى كان موضعاً للســـخرية والاستهجان وهناک مواقف أخرى لاتُصلح لها إلّا الفصحى ولو استعمل العامية فى هذه المواقف لكان فى ذلک ما يدعو إلى اتهامه بالتقصير أو الجهل. (فجال، ۲۰۰۸م: ۹۸-۹۹)

وفى الحقيقـــة يصعب علينا إدراک تطور المعانى فـــى اللهجات القديمة لبعد العهـــد بيننا وبين الزمن الذى تمّ فيه هذا التطـــور، ولجهلنا التام بتاريخ الكلمات العربية قبل الإســـلام، ولكنّنا حين نتّبع معانـــى كثير من الكلمات العربية الأصل ونقارنها بما صارت إليه فى لهجة كلامنا، نستطيع بسهولة أن ندرک كيف يمكن أن يتطور معنى الكلمة ويتغير. نحن عادة نرفض المعانى الحديثة ونسمّيها مولدة وننكر عليها فصاحتها لتمســـكنا بالمعانى القديمة ورغبتنا فى التقيد بها ننظر إلى المعانى المولدة شـــزراً ونتحاشاها فى أســـاليبنا الجدية. وقد أسلفت أنّ اللهجات الخاصة قد رافقت الفصيح فى ســـائر عصور العربية ولعلّ ذلک كان ســـبب الدعوة القائلة بوجود المشكلة، ولا يحسب الإنسان أنّ المشكلة اللغوية وما ينتج عنها من مشـــكلات ثقافية هى وليدة عصرنا الحديث، فهى قديمة كما نعرف ذلک بالبحث اللغـــوى التاريخى، ولكنّنا نســـتطيع أن نقول: إنّها اليـــوم أعقد ممّا كانت بالأمس وذلـــک لأنّ المجتمـــع العربى يواجه حضارة معقدة تلزمـــه أن يكون مزوداً بآلات للأخذ بنواحى هذه الحضارة المتعددة الأطراف، ومن هذه الآلات والأدوات مسألة اللغـــة؛ فلا تغنى لهجـــة اليوم الدارجة كما أنّ الفصيح لم يعـــد اللغة التى يملكها النـــاس ويتصرفون فـــى أمرها. وقد عرفنا أنّ اللغة العاميـــة كانت معروفة فى أيام العربية الأولى، وليســـت رأينا بالعربية الأولى العصور التى ســـبقت الإسلام وظهور النبوة فتلک حقب لانعرف من أمرها الشـــىء الواضح الذى يمكن أن يكون أساساً للبحث. ومعلوم أنّ العربية بدع بين اللغات القديمة، ذلک أنّنا لانعرف عن طفولتها

شيئاً نجعله مادة أصيلة فى البحث بحيث نقيم من هذه الركائز بناء يظهر التاريخ اللغوى العام لهذه اللغة.

إنّ اللهجات العامية تتعدّل وتتهذّب، ويدلک الخشن فيها فيلين، ولكنّها لا ولن تُغلــب ويجب ألا تُغلب، لأنّها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام. إنّ اللغات تتبع، مثل كلّ شــيء آخر، سُــنّة بقاء الأنســب وفى اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب التى ستبقى، لأنّه أقرب إلى فكرة الأمّة. لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامّية، ولتلک اللهجات مظاهر أدبية وفنّية لا تخلومن الجميل المرغوب، والجديد المبتكــر، بل فى أوروبا وأميركا طائفة من الشــعراء الموهوبين الذين تمكّنوا من التوفيــق بين العامّى والفصيح فى قصائدهم وموشّــحاتهم فجــاءت بليغة ومؤثّرة. وعندى أنَّ فى الموالى، الزجل، العتابا، الاستعارات المستملَحة، والتعابير الرشيقة المســتنبَطة، ما لو وضعناه بجانــب تلک القصائد المنظومة بلغــة فصيحة، والتى تمــلأ جرائد ومجلاّت العربية، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب، أو كســرب من الراقصات المترنّمات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة. وليست اللهجات العامّية فى مصر، ســوريا والعراق أبعد من عن لغة المعرّى والمتنبى من لهجة الهمج الإيطالية عن لغة أو قيدى وقرجيل. فإذا ما ظهر فى الشــرق الأدنى عظيمٌ، ووَضع كتاباً عظيماً فى إحدى تلک اللهجات، تحوَّلت هذه إلى لغة فصحى. بَيد أنّه بعيد حدوث ذلک فى الأقطار العربية، لأنّ الشرقّيين أشد ميلاً إلى الماضى منهم إلى الحاضر أو المســتقبل، فهم المحافظون، على معرفة منهم، أو على غير معرفــة، فإن قام كبيرٌ بينهم، لَزم، فى إظهار مواهبه، السُــبل البيانية التى ســار عليها الأقدمون، وما سُــبُل الأقدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده. (يعقوب، ١٩٨٥م: ۶۴)

النتيجة

وأخيراً يمكننا أن نقول: لم يســلم عصر من عصور التاريخ اللغوى من ازدواج فــى اللغة. وربمــا كانت العامية الدارجــة قريبة من الفصيحة لغــة الكتابه وذلک بسلامة أبنيتها وبتخير ألفاظها الصحاح العربية ولكنها متحللة من ضوابط الإعراب؛ فالمتكلمــون بها يلتزمون الإســكان فــى صورها وهذا ما نصبــوا إليه فى تقريب العاميــة فى الفصيح. وهــذا معناه أنّ اللهجات العامية تتعــدّل، وتتهذّب، ويدلک

الخشـــن فيها فيلين ولكنها لا ولن تُغلــب ويجب ألّا تُغلب لأنّها المصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام. ومن جهة أخرى، إنّ إبدال الفصحى بالعامية عملية تهدف إلى تجزئــة الأمة الواحدة إلى كيانات لغويــة متباينة تعمل على إعاقة تحقيق الوحدة العربية، وتقطيع الصلات والوشائح التى تكونت عبر الزمن بفضل اللغة الواحدة.

ولكــن بإمــكان الفصحــى أن تفيد مــن العاميــة الدّارجة فى وضــع الألفاظ والمصطلحات، وفى ظنِّ الكثير أنّ هذا المتولّد أوالمولَّد الذى أنشأته العامية أولى من إقحام الأعجميّ، وإن مَسّه التغيير حتىّ يتلاءم مع نظام العربية" فى أصواتها، وأبنيتهــا، خاصَّة" مــا وضعه أبناء البادية. ويمكن للفصحى أيضاً أن تســتفيد من العاميــة فى الأمثال والحكم، والمجازات، والكنايات، والطرف، وهى مورد لاينضب، ومادةٌ لاتنفد؛ لأنّ العامَّة كانوا غالبيَّة الأمَّة، وهى فى أوج سلطانها، واتخذوا العربيّة العاميــة وعاء أودعوه معانيهــم، وتصوُّراتهم، وأفضوا إليها بأســرار لغاتهم، فكانت أمثالهم تسير، وأقاصيصهم تحكى، ومصطلحاتهم تنقل، ومواصفاتهم تذيع وإنه ما يزال فى العاميات ثروةٌ يمكن الاحتفاظ بها.

وفى الواقع إنّ العاميّة هى المنطلق الذى بســببه يمكن تذوّق اللغة الفصحى، واللغــة بــدون ذوق ثقيلة وخيمــة، فمن تكلّم العامية اســتطاع تــذوق ألفاظها، وتراكيبهــا، ومعانيها، وأحسّ بجرســها وإيقاعها، ومردّ هــذا أنّ الفصحى والعامية فى أصلهما شــىءٌ واحد، وهذا الذوقُ لايحسُّ به مــن تعلّم لغةً أجنبيَّةً، وفى هذا رَدٌّ على الذين يعدُّون العربيّة الفصحى لغة ميّتةً، ناســين امتدادها فى الحياة من خلال العامية التى لايلبث متحدِّثها أن يئوبَ إلى لغته الأصلية بشىءٍ من التعليم، والتوجيه، والمجاهدة.

المصادر والمراجع

ـ آذرشب، محمد على. ١٣٨٣ش. اللغة العربية الحديثة. تهران: سمت.

ـ ابــن جنى، ابوالفتــح عثمان. لاتا. الخصائــص. تحقيق محمد على نجار. بيــروت: دار الهدى للطباعة والنشر.

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. ١٩٦٧م. المقدمة. بيروت: دار الشعب.

ـ ابن فارس، أحمد. ١٩٦٤م. الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها. تحقيق مصطفى الشويمى. بيروت: لانا.

ـ الأفغانى، سعيد. ١٩٨٧م. من حاضر اللغة العربية. بيروت: دار الفكر.

ـ أنيس، إبراهيم. ١٩٩٥م. فى اللهجات العربية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
ـ بلاسى، محمد السيد على. ١٩٩٩م. المدخل إلى البحث اللغوى. بيروت: الدار الثقافية للنشر.
ـ الجندى، أنور. لاتا. اللغة العربية بين حماتها وخصومها. القاهرة: مطبعة الرسالة.
ـ حسّان، تمام. ١٩٧٣م. اللغة العربية معناها ومبناها. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
ـ خرما، نايف. ١٩٧٨م. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة. الكويت: عالم المعرفة.
ـ زيدان، جرجى. ١٩٨٧م. الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية. بيروت: دار الحداثة.
ـ السامرائى، إبراهيم. ١٩٨١م. التطور اللغوى التاريخى. بيروت: دار الأندلس.
ـ ـــــــــــ ١٩٨٧م. فقه اللغة المقارن. بيروت: دارالعلم للملايين.
ـ السعران، محمود. ١٩٩٧م. علم اللغة: مقدمة للقارى العربى. القاهرة: دار الفكر العربى.
ـ سيد، محود أحمد. ١٩٨٨م. فى طرائق تدريس اللغة العربية. دمشق: جامعة دمشق.
ـ السيوطى، جلال الدين. ٢٠٠٩م. المزهر فى علوم اللغة وأنواعها. بيروت: المكتبة العصرية.
رالصالح، صبحى. لاتا. دراسات فى فقه اللغة. بيروت: دارالعلم للملايين.
رضيف، شوقى. ٢٠٠٣م. تاريخ الأدب العربى، العصر الجاهلى. القاهرة: دار المعارف.
ـ فجال، محمد بن محمود. ٢٠٠٨م. أثر التدريس باللغة العربية الفصحى فى مستوى الناشئة. مجلة ـ الخطاب الثقافى. الرياض: كلية الآداب جامعة الملك سعود. العدد٣.
www.culturediscourse.com
ـ الفراهيدى، خليل بن أحمد. ١٩٦٧م. العين. بغداد: لانا.
ـ قدور، أحمد محمد. ١٩٩٩م. مدخل إلى فقه اللغة العربية. دمشق: دار الفكر المعاصر.
ـ الكرمى، حسن سعيد. ٢٠٠٢م. اللغة نشأتها وتطورها فى الفكر والاستعمال. عمان: وزارة الثقافة.
ـ كريم زكى، حسام الدين. ٢٠٠٢م. العربية تطور وتاريخ، دراسة تاريخية فى نشأة العربية والخط وانتشارهما. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
ـ الكفورى، جورج. لاتا. اللغة العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها. بيروت: لانا.
ـ مدكور، أحمد على. لاتا. التربية وثقافة التكنولوجيا. القاهرة: لانا.
ـ النادرى، محمد أسعد. ٢٠٠٥م. فقه اللغة مناهله ومسائله. بيروت: المكتبة العصرية.
ـ وافى، على عبد الواحد. لاتا. علم اللغة. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
ـ ـــــــــــ ١٩٥٦م. فقه اللغة. القاهرة: لجنة البيان العربى.
ـ ويلز، جيمى. ٢٠١٠م. اللغة العربية. الموسوعة الحرة.
www.wikipedia.org
ـ ياسين، خليل. ٢٠٠٥م. اللغة العربية أسئلة التطور الذاتى والمستقبل. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
ـ يعقوب، إميل بديع. ١٩٨٦م. فقه اللغة العربية وخصائصها. بيروت: دار العلم للملايين.
ـ ـــــــــــ ١٩٨٥م. جبران واللغة العربية. بيروت: منشورات جروس.